ROWAQ MAYSALOON
رواق ميسلون
دراسات سياسية وثقافية
Political and Cultural Studies
مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الثورة السوريّة: هُزمت أم ما زالت مستمرّة؟

في هذا العدد

■ حوار العدد؛
- بينت شيلر
- سميح شقير

■ راتب شعبو؛
النجاح والإخفاق في الثورة
■ محمد عمر كرداس؛
الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها

■ شخصية العدد؛
إلياس مرقص

العدد التاسع نيسان/ أبريل 2023

رواق ميسلون
ROWAQ MAYSALOON

العدد التاسع
نيسان/ أبريل 2023

التحرير

رئيس التحرير
Editor in Chief
حازم نهار
Hazem Nahar
مدير التحرير
Editorial Manager
نور حريري
Nour Hariri
سكرتير التحرير
Editorial Secretary
وسيم حسان
Wasim Hassan
المحرر الثقافي
Cultural Editor
راتب شعبو
Rateb Shabo
هيئة التحرير
Editorial Board
جَوى العامري
Jawa Alamiri
خلود الزغيّر
Kholoud El-Zughayyar
ريمون المعلولي
Rimon Almaloly
غسان مرتضى
Ghassan Mortada

الهيئة الاستشارية

أيوب أبو دية
Ayoub Abudeah
(الأردن)
Jordan
جاد الكريم الجباعي
Gadalkareem Aljebaei
(سورية)
Syria
حسن نافعة
Hasan Nafaa
(مصر)
Egypt
خالد الدخيل
Khaled Eldakhil
(السعودية)
Saudi Arabia
خطار أبو دياب
Khatar Abu Diab
(لبنان)
Syria
دلال البزري
Dalal Al Bizri
(لبنان)
Lebanon
سعيد ناشيد
Saeed Nashed
(المغرب)
Morocco
سمير التقي
Samir Altaki
(سورية)
Syria
عارف دليلة
Aref Dalila
(سورية)
Syria
عبد الحسين شعبان
Abd Alhusain Shaban
(العراق)
Iraq
عبد الوهاب بدرخان
Abd Alwahab Badrkhan
(لبنان)
Lebanon
كارستين فيلاند
Carsten Wieland
(ألمانيا)
German
كمال عبد اللطيف
Kamal Abdelateef
(المغرب)
Morocco

التدقيق اللغوي
Proofreading
شيري أيهم
Shery Ayham
التصميم والإخراج
Design and Layout
شيرين فوزي
Sherein Fawzy
المشرف التقني
Technical Supervisor
طارق رضوان
Tarek Redowan

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

مؤسسة ثقافية وبحثية مستقلة، غير ربحية، تُعنى بإنتاج ونشر الدراسات والبحوث والكتب التي تتناول القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وتولي اهتمامًا رئيسًا بالترجمة بين اللغات الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، واللغة العربية. وتهدف إلى الإسهام في التنمية الثقافية والتفكير النقدي والاعتناء الجاد بالبحث العلمي والابتكار، وإلى تعميم قيم الحوار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وتسعى لتبادل الثقافة والمعرفة والخبرات، وإقامة شراكات وعلاقات تعاون وثيقة مع المؤسسات والمعاهد والمراكز الثقافية والعلمية، العربية والأوروبية. وتؤمن بأهمية تعليم وتدريب الشباب، والأخذ بيدهم، والارتقاء بهم ومعهم في سلّم الإبداع والإنتاج، وتعمل لتكون خططها التدريبية متوافقة مع المعايير العالمية، بالتعاون مع مجموعة من الخبراء العرب والأوروبيين.

رواق ميسلون

مجلة «رواق ميسلون» للدراسات الفكرية والسياسية؛ مجلة بحثية علمية، فصلية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ولها رقم دولي معياري (ISSN: 2757-8909). وتُعنى بنشر الدراسات ومراجعات الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وللمجلة هيئة تحرير متخصِّصة، وهيئة استشارية تشرف عليها، وتستند المجلة إلى أخلاقيات البحث العلمي، وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، وإلى لائحة داخلية تنظّم عملية التقويم.

تطمح المجلة إلى طرق أبواب فكرية سياسية جديدة، عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا أخرى جديدة، وتولي التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية المختلفة السائدة.

اللوحات في هذا العدد للفنان التشكيلي
السوري سامر إسماعيل

المراسلات باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني:
rowaq@maysaloon.fr

باريس، فرنسا: 0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

دراسات محكّمة

النجاح والإخفاق في الثورة

راتب شعبو

اتجاهات السوريين نحو واقع الأزمة ومآلاتها

ريمون المعلولي

الثورة السورية بين الامتداد الواسع والهزيمة و«البارادايم» الصوفي

جمال الشوفي

الثورة العسيرة: تحولات الثورة السورية في ضوء ممارسة المعارضات المنقسمة، والاستراتيجيات الدولية المتصادمة

رياض زهر الدين

انتفاضات الربيع العربي بين العطب الموضوعي والذاتي

مهران الشامي

لوحة للفنان سامر إسماعيل (حيرة) 2017

النجاح والإخفاق في الثورة

راتب شعبو

راتب شعبو

كاتب سوري يعيش في فرنسا منذ صيف 2014، أمضى في سجون النظام السوري 16 سنة (1983- 1999)، خرج منها مجردًا من حقوقه المدنية، تابع دراسته بعد السجن وحصل على شهادة الماجستير في الطب، صدر له سيرة ذاتية عن مدة السجن بعنوان (ماذا وراء هذه الجدران)، وكتاب يتناول الجانب السياسي من الدعوة المحمدية (دنيا الدين الإسلامي الأول)، وكتاب (قصة حزب العمل الشيوعي في سورية)، له ترجمات عن الإنكليزية، ويكتب في الصحف العربية.

هل تفشل الثورة؟

في المجتمعات، كما في المادة، لا شيء يفنى. لا يبقى المجتمع، بعد أي حركة احتجاج اجتماعية، كما كان قبلها، سواء أنجحت الحركة في بلوغ ما خرجت إليه أم لا. في كل حال تودِع الثورة في المجتمع حمولة مفيدة للمستقبل.

الكلام عن فشل أو نجاح الثورة فيه قدر من التعسف، فقد تكمن في النجاح بذور فشل تتكشف خلال وقت قصير، وتحيل النصر المفترض إلى هزيمة في عيون من خالوا أنفسهم منتصرين. وفي المقابل، قد ينطوي التعثر والفشل على بذور نجاح تهيئ، إذا حَسُن استغلالها، إلى نصر لاحق منفتح الآفاق.

على هذا، يبقى الكلام عن فشل ثورة كلامًا جزئيًا، أو لنقل إنه لا يمكن أن يعكس الحقيقة إلا جزئيًا، لأنه يغفل ما فعله «فشل» الثورة في المجتمع، وما أودعت الثورة «الفاشلة» في تضاعيف المجتمع من تغيرات سوف تتكشف وتظهر طبيعتها في المستقبل. شيء يشبه القول الشهير لـ **نيلسون مانديلا**: «أنا لا أخسر أبدًا، أنا أربح أو أتعلم».

بناء على ما سبق، ليس من الخطأ، ولا من باب تعليل آمال المغلوبين، أن نقول هذا القول الواسع في عموميته: إن الثورة لا تفشل في شحن طاقة التغيير في المجتمع. على أن الثورات غالبًا ما تكون مكلِفة وباهظة الخسائر. ربما لو كان التاريخ يخضع لإرادة واعية من البشر لاختار هؤلاء أن يكون التقدم أكثر سلمية وأقل تكلفة بشرية.

لكـن كل حركـة اجتماعيـة تضيـف إلـى وعـي النـاس وتكشـف لهـم مـا لا تكشـفه الحيـاة المسـتقرة. كل حركـة احتجـاج أو تمـرد اجتماعـي هـو تعبيـر عـن خلـل تنـام عليـه الحيـاة المسـتقرة وتخفيـه. لا يكشـف الاحتجـاج فقـط الخلـل الـذي تسـتره الحيـاة المسـتقرة حيـن توحـي بـأن كل شـيء علـى مـا يـرام، بـل يكشـف، إلـى ذلـك، مـدى ملاءمـة أو نجاعـة سـبل مواجهـة وتصحيـح الخلـل المقصـود. هكـذا تكـون حركـة الاحتجـاج قـد أحدثـت أثـرًا مزدوجًـا فـي المجتمـع، الأول، هـو إبـراز زيـف «الاسـتقرار». حتـى لـو عـادت الأمـور إلـى سـابق عهدهـا، فـإن الاسـتقرار اللاحـق لـن يكـون «بريئًـا» كمـا كان مـن قبـل، بـل سـيكون، فـي وعـي جـزء أوسـع مـن النـاس، اسـتقرارًا علـى الخلـل الـذي أظهـره الاحتجـاج. والثانـي، هـو درس الاحتجـاج نفسـه، أي شـكل الاحتجـاج ووسـائله وطريقتـه فـي معالجـة الخلـل. فـي حالـة النجـاح كمـا فـي حالـة الفشـل سيشـكل الاحتجـاج تجربـة محـددة وعينيـة ومصـدرًا للتعلـم، لا يغنـي عنـه أي مصـدر تعلـم آخـر. فالمـرء يتعلـم مـن كيسـه، كمـا يقـال، لأنـه لا يمكـن لأي تجربـة خارجيـة، مهمـا دُرسـت أن تغنـي عـن التجربـة المباشـرة والمحسوسـة للمجتمـع المحـدد. فـوق ذلـك يمكـن القـول إن النجـاح، أو مـا يعـدّ نجاحًـا، لا يشـكل، بحـد ذاتـه، درسًـا مفيـدًا لأصحابـه، وربمـا أخفـى الكثيـر مـن العيـوب التـي قـد يُنظَـر إليهـا لاحقًـا علـى أنهـا مزايـا، لأنهـا كانـت جـزءًا مـن تجربـة ناجحـة. الفشـل، والحـال هـذه، أكثـر قـدرة علـى التعليـم وإعطـاء الـدروس.

هل ينجح الاحتجاج على يد أعدائه؟

المطالـب التـي يخـرج النـاس مـن أجلهـا فـي احتجاجـات أو ثـورات، تتحـول فـي الواقـع، حيـن «تفشـل» الاحتجاجـات، إلـى مـا يشـبه المهمـات المطروحـة علـى المجتمـع وينبغـي لـه إيجـاد حـل لهـا، أو علـى الأقـل معالجتهـا بشـكل يخفـف الوطـأة علـى المحكوميـن. بـكلام آخـر، الاحتجاجـات، حتـى حيـن تتعـرض للقمـع وتعجـز عـن بلـوغ مطالبهـا، تفـرض علـى السـلطات القائمـة أن تعالـج مـا خـرج النـاس مـن أجلـه، لكـي تحافـظ هـذه السـلطات علـى سـيطرتها، فالاحتجـاج مؤشـر علـى خلـل وصـل إلـى حـد غيـر محتمـل، ومـن مصلحـة السـلطات أن تعالجـه. صحيـح أن معالجـة السـلطات القائمـة سـتكون أقـل عمقًـا وجذريـة ممـا يريـد أهـل الاحتجـاج، ولكـن تبقـى الاسـتجابة المفروضـة علـى السـلطات، ومـا سـتقدم عليـه مـن «إصـلاح»، إحـدى ثمـار الاحتجـاج وإن جـاء علـى يـد السـلطات التـي يحتـج النـاس ضدهـا، أي هـو نجـاح نسـبي للاحتجـاج ولكـن علـى يـد أعدائـه. فـي هـذا مـا يدعـم الـرأي الـذي يقـول إن الثـورة لا تفشـل بصـورة تامـة.

يلفـت **فوكوياما** النظـر إلـى هـذه الحقيقـة فـي كلامـه عـن ثـورات 1848 فـي أوروبـا، حيـن يقـول: «أثبتـت العقـود التـي تلـت عـودة النظـام المحافـظ، مباشـرة بعـد 1848، أنهـا العقـود الأكثـر تحـولًا اقتصاديًـا واجتماعيًـا فـي التاريـخ الأوروبـي [.....] فانـدلاع الثـورة، والخـوف مـن احتمـال تكرارهـا، بقيـا فـي أذهـان جميـع القـادة الاسـتبداديين فـي القـرن التاسـع عشـر، ووضعـا أجنـدة التغييـرات السياسـية التـي تكشـفت لاحقًـا فـي الجيليـن التالييـن»[1].

(1) فرنسـيس فوكوياما، النظـام السياسـي والانحطـاط السياسـي: مـن الثـورة الصناعيـة إلـى عولمـة الديمقراطيـة، ط1، (الدوحـة: طباعـة منتـدى العلاقـات العربيـة والدوليـة، 2016)، ص535، 536.
يشبّه فوكوياما ثورات الربيع العربي بالثورات الأوروبية 1848، وهو ما سنأتي عليه لاحقًا.

حتى حين تكون المطالب عالية ولا يمكن «للأعداء» تطبيقها، كما هي حال الثورات العربية التي طالبت بإسقاط النظام، فإن «النظام»، إلى جانب الارتداد العنيف ضد المحتجين، سوف يسعى أيضًا لنزع ما يستطيع من أسباب الاحتجاج عن طريق تقديم «إصلاحات» تعالج العيوب التي دفعت إلى الخروج ضده. وحين نقول «ما يستطيع» نقصد أن الموضوع يتوقف على قدرة النظام على الاستجابة من دون أن ينهار، أكثر مما يتوقف على الرغبة أو الإرادة. لكلّ نظام حدود بنيوية لا يستطيع التجاوب خارجها، على أن تكرار التجاوب تحت ضغط الحاجة والاحتجاجات من شأنه أن يدفع إلى تعديلات عميقة تطال البنية الأساسية للنظام.

حتى البلدان العربية التي لم تشهد احتجاجات شعبية مهمة، تأثرت بالحركة الشعبية الواسعة التي شهدتها البلدان الأخرى، وقد حاولت السلطات في معظم البلدان العربية استباق بروز احتجاجات ممكنة، برفع بعض المظالم وتحسين حال الناس، ولا سيما من خلال رفع الرواتب والأجور، الأمر الذي شهدناه في المرحلة الأولى من احتجاجات الربيع العربي.

محدوديَّة استجابة النظام السوري

كانت قدرة النظام السياسي في سورية على الاستجابة للشارع محدودة بطبيعة الحال، بسبب محدودية قاعدته السياسية، ذلك لأنه لا يمتلك مشروعية سياسية، فهو نظام أمر واقع (نظام انقلابي أسس لنفسه بالقوة، واستمر يؤسس لأبديته القائمة على قهر إرادة الناس، بدلًا من تأسيس آلية لإنتاج شرعية سياسية مستمدة من إرادة الشعب الحرة التي لا تتوافق مع أبدية أي نظام). كما أن النظام الأسدي لا يمتلك مشروعية تنموية لأنه نظام يستهلك طاقته في الانشغال الأمني لحماية الذات، ويقوم لذلك على النهب والفساد كوسيلة للحفاظ على تلاحم وتجديد دائرته الضيقة (النومنكلاتورا)[2]، ما يجعل النظام السياسي عبئًا على الاقتصاد الوطني ويؤدي إلى ضعف اقتصادي مستمر وزيادة في اللامساواة. إلى جانب الضعف الاقتصادي الذي ينعكس سلبًا على حياة السوريين، فإن الفساد الذي يغرق فيه أهل النظام ولا سيما الدائرة العائلية القريبة من رأس النظام والمحسوبين عليها، إضافة إلى ظاهرة التشبيح (اغتصاب حقوق الناس على يد زعران تابعين لأذرع رسمية أو غير رسمية للنظام، وبحماية ودعم من أجهزة الدولة) وهو أحد مظاهر «خصخصة الدولة»، نقول إن ذلك أفقد نظام **الأسد** أي سند أخلاقي يمكن أن تجده تجاه أنظمة مستبدة أخرى، لا يقوم استبدادها على النهب بل يقوم على تصورات سياسية عامة حول تطوير المجتمع، من دون أن تحتوي على ظاهرة إثراء ومحاباة عائلية ومحسوبيات.

هكذا فإن محدودية القاعدة السياسية للنظام السوري تجعل من تحرير المستوى السياسي، وهو المطلب أو المحرك الأول للاحتجاجات، نهاية محتومة له. لا يجد النظام والحالة هذه أمامه سوى مواجهة الاحتجاجات بالعنف. وبما أن أي ممارسة عنيفة تحتاج إلى تغطية أيديولوجية سياسية، فقد اعتمد النظام في ذلك على خطاب معلن يقول إن هناك مؤامرة على الدولة السورية، محاولًا

(2) تعبير روسي مأخوذ من الأصل اللاتيني nomenclatura ويعني نظام التسمية، ويشير إلى فئة من الناس امتلكت مختلف المواقع الإدارية الرئيسة في الاتحاد السوفياتي، وأدارت مجالات النشاط كلها فيه؛ وتنشأ بين أفراد هذه الفئة روابط ومصالح مشتركة تجعلها أقرب ما تكون إلى طبقة جديدة.

الاستثمار في ما للفكرة الوطنية من رصيد لدى السوريين. واعتمد خطابًا مستورًا موجَّهًا إلى الداخل، يقوم على إثارة الانقسامات الهوياتية بين أبناء المذاهب والأديان والقوميات وتغذيتها والاستثمار من التفكك الذي تنتجه، وخطابًا آخر موجهًا إلى الخارج، يقوم على إبراز الجوانب الإسلامية في الاحتجاجات، للاستثمار في حساسية الغرب من الإسلام وما ارتبط به، ولا سيما منذ بداية القرن الحالي، من أعمال إرهابية ضد الغرب.

ولكن، إلى جوار العنف، وضمن هذه القدرة المحدودة، استجاب النظام، مع ذلك، بإجراءات مثل زيادة الرواتب وتجنيس مئات آلاف الكرد الذين كانوا حتى ذلك الوقت محرومين من الجنسية السورية، وتعديل الدستور السوري وإلغاء المادة الثامنة الخاصة بعدّ حزب البعث قائدًا للدولة والمجتمع، وإلغاء قانون الطوارئ وحل محكمة أمن الدولة العليا ...إلخ؛ هذه الخطوات كانت مسعى النظام لامتصاص ضغط الحراك الشعبي، وهو ما يمكن عدّه «نجاحات» للحراك ولكن على يد أعدائه، أي على يد النظام الذي خرج المحتجون لإسقاطه. ومن المفهوم أن تكون هذه «المكاسب» خاضعة دائمًا لقوتين: قوة الميل الاستبدادي الذي تفرضه بنية النظام في دفاعها الذاتي ضد التغيير، وقوة التحرر التي تستمد نسغها من سعي الناس للخلاص من التبعات السياسية والاقتصادية لبنية الاستبداد المكرّسة. على هذا، رأينا أن ما «قدمه» النظام للمحتجين، في مسعى لامتصاص طاقة الاحتجاج، تبخر مع تعثر الثورة، وازداد حال السوريين سوءًا.

التفسيرات المتداوَلة لتعثر الثورة السورية

كُتب الكثير في تفسير المصير الذي انتهت إليه الثورة السورية، وكانت المسارات العامة للتفسير تتراوح بين تيارين عامين، الأول هو التأثير الخارجي ودوره في «فشل» الثورة، سواء من جهة دور الدعم في تخريب الثورة، أو من جهة موقف الخارج من تغيير النظام. والثاني هو تأثير الداخل السوري، سواء لما يحوي من تنوع وقابلية للانقسام على أساس هوياتي يفوق ويعرقل انقسامه على أساس سياسي، أو لتأثير طبيعة المعارضة السورية من حيث تشتتها وتنافر عناصرها أو من حيث خياراتها السياسية.

أولًا: العلاقة مع الخارج والتأثير الخارجي

يقول التفسير إن المشكلة تكمن في الدعم الخارجي، لأنه ربط الثورة بشروط «خارجية» قيدتها، ورهنت تطورها بحلقة صراع مصالح إقليمي ودولي، وجعلت من الممثلين السياسيين للثورة، ولا سيما «المجلس الوطني» ثم «الائتلاف الوطني»، أدوات في يد الخارج «الداعم» وليس في يد الثورة. وهكذا فإن التشكيل الذي يفترض أنه يمثل الثورة، لم يكن «صوته من رأسه»، ولذلك فشل في القيادة وفي حيازة قيمة اعتبارية ثورية كما في الداخل كذلك في الخارج. انتهى الأمر عندئذ إلى الإضرار بصورة الثورة وذهاب ريحها.

يطرح على هذا التفسير أسئلة مهمة: لماذا لم يتطور تمثيل الهيئات التمثيلية التي بقيت في الداخل؟ وإذا كانت هذه الهيئات الداخلية غير جديرة بالثقة، لماذا لم تنشأ تمثيلات داخلية أخرى تملأ فراغ التمثيل الذي نجم عن انفكاك العلاقة بين الثورة وتمثيلها «الخارجي»؟ في الواقع امتلأ هذا الفراغ في الداخل ولكن ليس ببروز تمثيل ديمقراطي من طينة الثورة، إنما ببروز تمثيلات إسلامية بالتوازي

مع التحول العسكري واللاديمقراطي للثورة. أي إن ملء هذا الفراغ سار مع انزياح قيم الثورة إلى الهامش أكثر فأكثر، وعزز انفكاك التمثيل الخارجي عن جسد الثورة؛ سنعود لاحقًا إلى هذه الفكرة.

يتوسع هذا التفسير إلى قول إن سخاء الدعم الخارجي أدى في تضاعيفه، ليس إلى دعم الثورة بل بالأحرى إلى فساد الهيئات التي جرى الاعتراف الدولي بها بوصفها ممثلة للثورة، فأصيبت هذه الهيئات مبكرًا، وقد جرى المال السهل بين أيديها، بمرض السلطات المفروضة على الشعب والبعيدة عن الرقابة وعن المحاسبة (الفساد)، وهذا ما زاد، في الواقع، من انفصالها عن القضية التي يفترض أنها تتولى تمثيلها. يبقى السؤال مع ذلك، كيف يمكن لهيئة تمثل ثورة، أي تمثل أقصى حالات الحضور الشعبي المباشر في المجال السياسي، أن تكون فاسدة؟ كيف نفسر فشل الثورة في أن تسقط العناصر الفاسدة من الهيئة السياسية التي يفترض أنها تمثلها؟

كما قد يقال إن مشكلة الدعم الخارجي هي أنه كان شحيحًا بالسلاح، وأن التردد الخارجي في موضوع السلاح النوعي (مضادات الدروع ومضادات الطيران)، إضافة إلى امتناعه عن فرض مناطق حظر جوي، هو ما أفشل الثورة وحرمها من إمكان إسقاط النظام الذي بقي متفوقًا في الميدان العسكري، ولا سيما في سلاح الجو. ويذهب قول آخر إلى أنه على الرغم من ذلك، أي على الرغم من الشح بالسلاح، كان يمكن إسقاط النظام بالسلاح المتوافر، لولا الخطوط الحمر التي وُضعت، من الخارج، في وجه قوى الثورة، فقد كانت هناك قرارات خارجية منعتها من التقدم في مناطق معينة في لحظات معينة. تبقى هذه الأقوال في إطار التحليلات والافتراضات لأنه لا يوجد ما يوثق هذا التحليل.

هنا أيضًا، في ما يتعلق بالتحول العسكري نفسه، وعدّه أيضًا قرارًا خارجيًا، مثله في ذلك مثل سيطرة اللون الإسلامي الذي ازداد كثافة مع ازدياد كثافة السلاح، يمكن ملاحظة مفارقة بين التحذير العام، في بداية الثورة، من التحول العسكري بوصفه مصيدة ومقتل للثورة، وبين تحميل مسؤولية فشل الخيار العسكري، الذي كان يعدّ خيارًا فاشلًا بذاته، إلى تقصير الخارج في تقديم السلاح. هذه المفارقة تضيء على تحول جرى في وعي أهل الثورة، من تصور يقول بانتصار الثورة التي تطالب بإسقاط النظام باسم الحريات والعدالة، إلى القول بإسقاط النظام بأي شكل. صحيح أن هذا التحول جاء تحت ضغط العنف الوحشي للنظام، ويمكن القول إنه كان استجابة «عفوية» لقمع لم يترك للمحتجين سبيلًا آخر سوى الاستسلام، ولكنه يبقى تحولا مهمًا ينبغي لنا ملاحظته والتوقف عنده. وبعد أن تكرَّس هذا التحول، الذي نكتفي هنا برصده من دون مناقشته، بات يجري الدفاع عنه بالقول: ليس المهم كيف، المهم أن يسقط النظام، ثم لكل حادث حديث.

ثانيًا: دور موقف الخارج من تغيير النظام

هناك تفسير آخر يربط تعثر الثورة بعدم رغبة الخارج بتغيير نظام **الأسد**، وربط هذا الموقف الخارجي أساسًا بإرادة إسرائيل، لعل هذا من التفاسير الأكثر شيوعًا. من المريح للمرء أن يستند إلى تفاسير بهذه السهولة. يرتاح المرء بذلك من التحليل والتدقيق في مجال صراع شديد التعقيد، وينسب النتيجة إلى إرادة «عليا» وكأنها لا تُرد. يكثر سماع عبارات نهائية مثل «لو أرادت أميركا أن تسقط النظام لسقط»، أو عبارة مثل «إسرائيل لا تريد أن يسقط النظام، نقطة على السطر».

يفشـل هـذا الـرأي فـي رؤيـة الخـارج بوصفـه قـوة نسـبية، أي أن مواقفهـا ليسـت مسـتقلة تمامًـا عـن احتمـالات تطـور الصـراع الداخلـي وعـن توازنـات القـوى فيـه. صحيـح أن للقـوى الخارجيـة فاعليـة أكيـدة ووزنًـا فـي التأثيـر علـى الحـدث، لكـن هـذا لا يعـدو كونـه عنصـرًا مهمًـا مـن عناصـر أخـرى لهـا دورهـا فـي تقريـر مصيـر الحـدث، ولهـا تأثيرهـا أيضًـا فـي موقـف الخـارج نفسـه.

تعظيـم دور الخـارج فـي وعـي المعارضـة قـاد إلـى خلـل «نفسـي» لـدى قـادة المعارضـة، تجلـى فـي انشـغالهم باقتسـام جلـد الـدب قبـل صيـده، علـى اعتبـار أن الخـارج هـو مـن سـوف يصطـاد الـدب. فأصبحنـا أمـام مشـهد صراعـات داخـل المعارضـة علـى تقاسـم السـلطة قبـل اسـتلام السـلطة. أسـاس هـذا الخلـل هـو شـيوع أوهـام التدخـل الخارجـي لـدى قـادة المعارضـة. يلاحـظ هـذا الجانـب أحـد المشـاركين المهميـن فـي الدوائـر الرسـمية للمعارضـة السـورية: «إذا كان هنـاك تدخـل خارجـي سـيتكفل بإسـقاط **الأسـد**، كمـا اعتقـد معظـم قـادة المعارضـة، فمـا الـذي يسـوغ تضييـع وقتهـم علـى مـا سـينجزه الآخـرون خيـرًا منهـم، وفـي وقـت أقصـر بكثيـر مـن الوقـت الـذي سـيحتاجون إليـه لإسـقاطه؟ أليـس مـن الأجـدى القفـز عـن مرحلـة ليـس لهـم فيهـا دور حاسـم، إلـى المرحلـة التاليـة لهـا: مرحلـة مـا بعـد الأسـدية، وتركيـز جهدهـم علـى الفـوز بأكبـر قـدر مـن السـلطة لأحزابهـم وأشـخاصهم»[3].

ثالثًا: دور الطبيعة الانقسامية للداخل السوري

يذهـب كثيـرون إلـى أن خطـوط الانقسـام الهوياتيـة الكامنـة فـي المجتمـع السـوري هـي السـبب فـي المصيـر الـذي انتهـت إليـه الثـورة السـورية. ذلـك أنـه فـي كل حـراك سياسـي، فـإن هـذه الانقسـامات سـرعان مـا تشـوش وتتغلـب علـى الانقسـامات السياسـية التـي تفـرز النـاس وفـق نظرتهـم ومصالحهـم الحياتيـة، وتحـدد مـن ثـمّ مواقفهـم فـي الشـأن العـام. ويكـون ذلـك بـارزًا أكثـر كلمـا كان الحـراك أكثـر قـوة وأكثـر تهديـدًا للنظـام. الانقسـام الأسـاس الـذي فجّـر ربيـع 2011 فـي سـورية، كان انقسـامًا سياسـيًا بيـن طغمـة حاكمـة تلتـف حـول نـواة عائليـة صلبـة، وبيـن المحكومين الذيـن يعيشـون فـي حـال سـيئة منـذ عقـود، وخرجـوا، مـع موجـة الاحتجاجـات التـي شـملت العديـد مـن البلـدان العربيـة، فـي احتجاجـات متصاعـدة ضـد حكـم طغمـة **الأسـد**. ولكـن سـرعان مـا أحيـل الانقسـام السياسـي إلـى الهامـش، لصالـح انقسـامات هوياتيـة ذات طابـع طائفـي أو قومـي، الأمـر الـذي سـاهم فـي تشـتت قـوة الثـورة، وفـي تحـول الصـراع الداخلـي فـي سـورية إلـى تابـع هزيـل لصراعـات إقليميـة ودوليـة بـات السـوريون وقـودًا لهـا.

يتصـل بهـذا الـرأي رأي آخـر يقـول إن مـن أهـم أسـباب فشـل الثـورة هـو سـيطرة الإسـلام السياسـي فيهـا، ومـا يجـره ذلـك مـن تفتيـت للمجتمـع، ومـن نفـور قسـم مهـم مـن المجتمـع السـوري، فضـلًا عـن نفـور المجتمـع الدولـي، ولا سـيما مـع بـروز الجانـب الجهـادي المسـلح.

يبقـى السـؤال عـن سـبب فشـل الرابطـة المدنيـة فـي التغلـب علـى الرابطـة الأهليـة فـي بلـد مثـل سـورية، هـل يتعلـق الأمـر ببنيـة المجتمـع نفسـه أم بثقافتـه[4] أم يتوقـف الأمـر علـى الإرادة، وكيـف يمكـن أن يتحقـق

(3) ميشيل كيلو، الثورة السورية وبيئتها الدولية، ط1 (د. م: مؤسسة دار الجديد، 2023)، ص21.

(4) هنـاك تيـار فكـري يجعـل السياسـة محكومـة للثقافـة، وعليـه يـرى أن الثقافـة الإسـلامية عقبـة فـي وجـه الديمقراطيـة. يبـدو لنـا أن السياسـة تتفـوق علـى الثقافـة وتفـرض عليهـا التكيـف. يعـرض علينـا التاريـخ تحـول مجتمعـات ذات ثقافـة تمجـد العنـف مثـل اليابـان، والـدول الإسـكندنافية (الفايكنـغ) إلـى ثقافـة للسـلام. فـي هـذا المجـال يمكـن مراجعـة كتـاب «الإسـلام والحداثـة والربيـع العربـي» مـن منشـورات المركـز الثقافـي العربـي، الـدار البيضـاء، 2015، حـوار مـع

ذلك، أي كيف يمكن تغليب الرابطة المدنية على الرابطة الأهلية في الشأن العام؟

رابعًا: دور الطبيعة الخاصة للمعارضة والمثقفين في سورية

هناك حضور لرأي آخر يرد الفشل إلى «عطب الذات»، أي إلى خلل في البنية السياسية والنفسية والشخصية للمعارضة والمعارضين السوريين، الأمر الذي أفضى إلى غياب القيادة في الثورة، أي غياب «نخبة سياسية متفاهمة ومتكاملة ومتعاونة لتحقيق أهداف الشعب أولًا وتوحيد صفوف المعارضة وصفوفه معًا»[5]. يذهب في هذا الاتجاه الكاتب السوري الكردي **عبد الباقي صالح اليوسف** الذي يرى أن الانتفاضة السورية لم تتحول إلى ثورة لافتقادها القيادة المشتركة، مستشهدًا برأي مشابه لـ **جورج طرابيشي** في أحد حواراته[6]. المشكلة إذًا، بحسب هذا الرأي، ليست في المجتمع بل في النخبة التي ندبت نفسها إلى العمل في معارضة النظام.

بحسب **برهان غليون**، الرئيس الأول للمجلس الوطني السوري، وأحد أبرز من كتب وانتقد قيادة المعارضة في فترة الثورة، أن الثورة «أثارت معركة داخل المعارضة السورية الضعيفة والمتهافتة لحسم الصراع المزمن بين شخصياتها القيادية، وتكتلاتها الرئيسة»، ما أدى إلى «بث الفوضى الفكرية والسياسية والتنظيمية داخل صفوفها وتفجير التناقضات والنزاعات الكثيرة الكامنة فيها، العقائدية والتنظيمية والمذهبية والمناطقية»[7].

بحسب الرأي السابق، ليست المشكلة في المعارضة إنما أيضًا في المثقفين السوريين الذين لم يلتقطوا فرصة قيام المجلس الوطني بعد أشهر من التعثر، ويدعموه، بل تحولوا، بدلًا من ذلك، إلى قوة هدم رئيسة له. منهم من تجاهل المجلس الوطني على أنه لا يشكل بديلًا مختلفًا عن النظام، ومنهم من انتقد برنامج المجلس القائم على طلب التدخل الخارجي وراحوا يسمونه «مجلس اسطنبول»، مجاراة لتسمية أطلقها نظام الأسد، و«القسم الثالث، الأشرس بين الجميع، فقد نظر إلى المجلس بذاته على أنه انتزاع «اللقمة» من فمه بعد أن أفنى أشهرًا يركض وراءها عبر مؤتمرات ومداخلات إعلامية ومناورات سياسية لم تتوقف. وهو الذي جعل من تهشيم سمعة المجلس وتعقب أخطائه وزلاته والتهجم على قيادته [.....] واجبًا ثوريًا ووطنيًا»[8].

خامسًا: دور خطأ الخيارات السياسية

يوجد أيضًا من يعيد تعثر الثورة السورية إلى الخيارات السياسية التي سارت بها المعارضة

فرنسيس فوكوياما، حاوره رضوان زيادة، حازم نهار (مترجم).

(5) برهان غليون، عطب الذات، وقائع ثورة لم تكتمل، سورية 2011– 2012، ط1 (د. م: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019)، ص488. في الاتجاه نفسه تكتب سميرة المسالمة: «خلال فترة ولايتي كنائبة رئيس في الائتلاف، لم أشهد أننا كنا نشتغل كفريق، وفي الحقيقة كنا أقرب إلى موظفين يفتقدون الروح المؤسساتية»، في كتابها «الانهيار السوري، الصراع على السلطة والدولة والهوية»، ط1 (الجزائر: منشورات الضفاف، منشورات الاختلاف، 2022)، ص15.

(6) عبد الباقي صالح اليوسف، الانفجار السوري: الهوية، الانتماء، الكرد، الدولة الوطنية، والتسوية التاريخية، ط1 (د. م: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2017)، ص263 – 264.

(7) المرجع نفسه، ص489.

(8) المرجع نفسه، ص135.

السـورية. لا يصمـد هـذا التفسـير للنقـد فـي حقيقـة الأمـر، ذلـك أنـه كان لـكل أطيـاف المواقـف الممكنـة حضـور فـي المعارضـة السـورية التـي لـم تكـن موحـدة فـي أي وقـت. كان هنـاك مـن مـالَ إلـى الحـوار مـع النظـام، وانتقـد التصعيـد والقطعيـة والاعتمـاد علـى الخـارج، وكان هنـاك العكـس. هنـاك مـن رفـض التسـليح ومـن سـار مـع التسـليح. وهنـاك مـن ابتعـد عمـا عـدّه لغـة طائفيـة، وهنـاك مـن اسـتخدم مـا عـدّه لغـة واقعيـة تسـمي الأشـياء بأسـمائها ...إلـخ. وكان لجميـع هـذه الآراء حضـور تنظيمـي ومنابـر. لـم يـؤد الزمـن إلـى تبلـور التيـار «الملائـم» وتحولـه إلـى اتجـاه عـام، كمـا يفتـرض أن يحـدث. مـا جـرى، مـع الزمـن، هـو تراجـع المعارضـة ذات السـقف الأعلـى عـن سـقفها العالـي، ولكـن التراجـع لـم يـأت فـي سـياق «تفاوضـي»، بـل جـاء نتيجـة تراجـع وزن المعارضـة السياسـية وضعفهـا المتزايـد، لذلـك لـم يكـن لهـذا التراجـع أثـر وازن فـي إيجـاد مخـرج، بـل سـاهم فـي زيـادة تصلـب موقـف النظـام الـذي لـم يغيـر مـن موقفـه مـن الثـورة ومطالبهـا الأساسـية، حتـى فـي أشـد لحظاتـه ضعفًـا.

يمكـن القـول إن تشـتت المعارضـة كان أكثـر خطـرًا علـى مصالـح السـوريين المنتفضيـن مـن الخيـارات السياسـية التـي مشـت بهـا. الانقسـام بيـن مـا سـمي معارضـة خـارج (بسـقف عـال) ومعارضـة داخـل (بسـقف أخفـض) سـمح بفتـح ثغـرة فـي جبهـة المعارضـة كان مـن شـأنها أن تفـرغ طاقتهـا، وتشـوش علـى طروحاتهـا. لكـن مـع ذلـك، لـم يكـن لعـدم وحـدة المعارضـة أن يكـون مؤثـرًا، لـو امتلـك أي قطـب معـارض مـا يكفـي مـن القـوة لكـي يفـرض نفسـه علـى العالـم. وقـوة أي تمثيـل للثـورة يأتـي مـن صلتـه بالثـورة ومـن قدرتـه علـى اسـتجرار الطاقـة والـوزن السياسـي منهـا، وهـذا مـا لـم يتحقـق فـي مسـار الثـورة السـورية، كمـا سـنعرض لاحقًـا.

سادسًا: دور بطش النظام

قـد يكـون مـن بيـن أكثـر الآراء شـيوعًا، الـرأي الـذي يذهـب إلـى أن القـوة المفرطـة والإجراميـة التـي واجـه بهـا النظـام، بأجهزتـه الرسـمية وغيـر الرسـمية كلهـا، هـي المسـؤولة الأولـى عمـا آلـت إليـه الحـال فـي سـورية. فهـي المسـؤولة عـن التحـول العسـكري فـي الثـورة ومـا اسـتجره ذلـك مـن تبعـات. فـي حيـن كان معظـم مناصـري الثـورة يحـذرون مـن التحـول الـى السـلاح، صـار معظمهـم يسـاندونه بعـد أن صـار واقعًـا، وبعـد أن تبيـن أن الخيـار المطـروح علـى الحـراك هـو بيـن الاختنـاق تحـت ثقـل الآلـة العسـكرية والأمنيـة للنظـام، وبيـن الاسـتمرار المسـلح. ثـم اسـتجر هـذا التحـول دخـول عنصريـن متلازميـن: الأول هـو تغلغـل الإسـلام الجهـادي فـي جسـد الثـورة، والثانـي هـو تغلغـل الـدول الداعمـة، نظـرًا إلـى حاجـة المواجهـة المسـلحة مـع النظـام إلـى دعـم مالـي وعسـكري لا يمكـن الاسـتغناء عنـه. ويكمـن فـي أصـل هـذه التحـولات كلهـا، كمـا قلنـا، السياسـة الأمنيـة للنظـام، والهادفـة إلـى إخمـاد الحركـة بالنـار.

تفكّك أو ضعف العلاقة بين مكونات الثورة

التفسـير الأقـرب إلـى عقلنـا فـي فهـم تعثـر الثـورة السـورية يقـول إن العلـة الأساسـية التـي أنهكـت الثـورة، هـي تفـكك أو ضعـف العلاقـة، أو قـل عـدم نشـوء علاقـة وثيقـة بيـن مكونـات الثـورة التـي بقيـت عمليًـا مـن دون تمثيـل. وقـد تجلـى ذلـك فـي النقـاط التاليـة:

1. تعـدد التشـكيلات السياسـية التـي تريـد أو تزعـم تمثيـل الثـورة، مـن دون أن يجمعهـا إطـار تنسـيقي

واحد، ما برز على شكل تباينات في المواقف والتوجهات، ثم على شكل صراعات بين هذه التشكيلات[9]، الأمر الذي شتت الطاقة السياسية للاحتجاجات وحرم الثورة من القدرة على حصاد ثمار سياسية من قوتها في الشارع. كما فتح المجال أمام نظام الأسد للمراوغة والكلام عن معارضات سورية وليس معارضة، كما جاء على لسان **بشار الجعفري**: «لا يستطيع فصيل معارض واحد أن يحتكر الصفة التمثيلية لجميع الفصائل [....] وعندما تصل المعارضات إلى قاسم مشترك، عندها نقول المعارضة تطالب»[10]. وفتح ذلك أيضًا المجال للدول المنخرطة في الشأن السوري كي تصنع معارضات ملائمة لها. معلوم أن هناك بعض التشكيلات المعارضة التي تحمل أسماء عواصم هذه الدول.

2. الاعتراف الدولي الواسع بالمجلس الوطني السوري (تشرين الأول/ أكتوبر 2011– تشرين الثاني/ نوفمبر 2012) ثم بالائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية من بعده، أعطى وزنًا مهمًا لتشكيل معارض واحد، أي أنه فرض قدرًا لا بأس به من الوحدة السياسية على المعارضين السوريين وتجاوز إلى حد ما التشتت والتشرذم في التمثيل السياسي للثورة. غير أن هذا لم يعالج مشكلة ضعف العلاقة بين الثورة السلمية وتمثيلها السياسي المعترَف به دوليًا، فقد ظل هذا التمثيل مقطوعًا عن الحركة في الداخل من حيث إنَّه لا يملك فاعلية قيادية فيها، واقتصر فعله على الظهور بدور ممثل الثورة أمام الخارج، مع افتقاده إلى حد كبير إمكانات التأثير في الحراك أو قيادته. بمعنى آخر، كان التمثيل صدى للحراك أكثر من كونه قائدًا له. وكان من نتيجة ذلك أن اتخذ الحراك مسارًا «عفويًا» من دون قيادة، فكان بدوره صدى للسياسة الأمنية الوحشية للنظام، الأمر الذي جعل الحراك لقمة سائغة لأصحاب النفوذ الفكري (صنوف الإسلاميين) والمادي (دول الخليج).

حرم هذا الواقع الثورة من أن تكون لها قيادة، وأورث التشكيل السياسي المعترف به دوليًا (المجلس، الائتلاف) شعورًا صائبًا بالخواء السياسي. لم يكن لدى من يفترض أنهم ممثلو الثورة، قوة من يقودون حقًا، لأنهم بالفعل لم يكونوا في قيادة ثورة، إنما كانوا في أحسن الأحوال سعاة لدعم حراك لا يمونون عليه، ولذلك كانوا ضعفاء أمام الدول التي يطلبون عونها، وكانت هذه الدول تعاملهم على أنهم ضعفاء، لأنها تعلم حقيقة ضعف علاقتهم بالثورة، أي ضعف وزنهم وتأثيرهم[11].

---

(9) من بين شهادات كثيرة، نورد شهادة لبرهان غليون من كتابه «عطب الذات» سابق الذكر، من فقرة بعنوان «الوحدة المستحيلة» (يقصد وحدة التمثيل السياسي للثورة)، فبعد مشاركته بعدة محاولات للوحدة ينتهي إلى القول: «بعد فشل هذه المحاولة التي أظهرت للمرة الألف انعدام ثقة المعارضة بنفسها وببعضها وخوفها من التعاون، أو سعي كل منها للانفراد بقيادة العمل كما كان يأمل، زادت قناعتي بأن النزاعات القديمة قد شلّت المعارضة الحزبية، وأنه لا أمل في المراهنة على تعاونها لتشكيل إطار سياسي يقود الثورة ويحمي شبابها»، ص79. لكن هذا لا يعدو كونه أحد مظاهر أزمة التحرر من الاستبداد في بلداننا.

(10) من مقابلة لبشار الجعفري مع يورونيوز، في 18 آذار/ مارس 2016.

(11) يمكن تلمس شعور هؤلاء بالضعف أمام الدول الأخرى من أحاديثهم وتعظيمهم لمسؤولي الدول التي تستقبلهم. ومن استخفاف هذه الدول بهم. في اسطنبول في صيف 2016، عبّر الراحل ميشيل كيلو في أثناء حديث جمعنا –وكان عضوًا في الائتلاف حينها– عن تحكم الدولة التركية بهم، بقول إن الأتراك يحددون لنا ماذا نفطر وماذا نتعشى.

3. ضعـف العلاقـة بيـن التمثيـل السياسـي والمكونـات العسـكرية. نشـأ الجيـش الحـر قبـل نشـوء المجلـس الوطنـي السـوري، وبطريقـة مسـتقلة عـن التشـكيلات السياسـية كلهـا. ولـم يكـن للمجلـس الوطنـي سـيطرة علـى قـادة الكتائـب الذيـن ارتبطـوا بمموليـن لا تأثيـر للمجلـس عليهـم أو حتـى لا يعرفهـم. وكان أبـرز قـادة الجيـش الحـر، العقيـد **ريـاض الأسـعد**، ينظـر إلـى نفسـه علـى أنـه قائـد سياسـي، وينظـر إلـى المجلـس علـى أنـه منافـس. هـذا قبـل أن تُكـوَّن الكتائـب الإسـلامية التـي تعادي المجلـس صراحـةً. إذا علمنـا أن الثقـل العسـكري الـذي واجـه النظـام وأجبـره علـى الانسـحاب مـن مناطـق واسـعة مـن سـورية، كان ثقـلًا إسـلاميًا مسـتقلًا عـن «الممثـل السياسـي للثـورة»، ومعاديًـا لفكـرة الديمقراطيـة، نلمـس إلـى حـد كان ثمـة تفـكك فـي العلاقـة بيـن عناصـر القـوة الدافعـة باتجـاه تغييـر نظـام الأسـد. والحـق أن الأمـر تعـدى التفـكك إلـى التعـادي والصـراع والتكسـير المتبـادل.

4. المكونـات العسـكرية التـي نشـأت عقـب الثـورة كانـت عديـدة، وذات مرجعيـات تمويليـة وتبعيـات سياسـية متعـددة، وهـذا قـاد إلـى صراعـات بينيـة كان مـن نتيجتهـا، كمـا هـي الحـال غالبًـا فـي مثـل هـذه الصراعـات، تلاشـي التشـكيلات الأكثـر اعتـدالًا، وبـروز التشـكيلات الأكثـر تشـددًا. علـى كل مسـتوى مـن الفاعليـة داخـل إطـار مواجهـة نظـام الأسـد، تضـع يـدك علـى تفـكك فـي العلاقـة، تسـربت مـن خلالـه الطاقـة التغييريـة، وانعكـس خرابًـا علـى أهـداف السـوريين وأرواحهـم.

التفـكك المذكـور، تضافـر مـع الأسـباب الأخـرى فـي علاقـة تأثيـر متبـادل انتهـت إلـى شـلل عمليـة التغييـر، وتحولهـا إلـى صـراع عسـكري تابـع لصراعـات بيـن دول وأحـلاف، كان مـن نتيجته الانقسـام والتقسـيم الواقعـي الـذي تعيشـه سـورية اليـوم.

ما وراء أسباب التعثر

لا يخلـو أي سـبب ممـا سـبق مـن فاعليـة ووجاهـة، ولكننـا نعتقـد أنـه يجـب البحـث فـي مـا يجعـل هـذه الأسـباب فاعلـة، أو فـي مـا يسـهّل تضافـر العوامـل السـلبية ويعيـق مسـار تقـدم الاحتجاجـات نحـو أهدافهـا الأولـى، ومـا يجعـل عناصـر النجـاح، غيـر القليلـة فـي الثـورة، متعثـرة. إن ملاحظـة النهايـات المتشـابهة لثـورات الربيـع العربـي، علـى الرغـم مـن اختـلاف شـروط وتفاصيـل كل منهـا، توجـب البحـث فـي أسـباب أكثـر عمقًـا، تشـمل فـي الواقـع مختلـف هـذه التجـارب.

مـن الصعـب أن ينكـر أحـد أنـه توافـر للثـورة السـورية الكثيـر مـن أسـباب النجـاح، انتشـار شـعبي واسـع، وجمهـور كبيـر ثابـت الإرادة والإيمـان بمطالبـه، وشـديد الحماسـة والاسـتعداد للتضحيـة، كمـا توافـرت لهـا قيـادات محليـة (تنسـيقيات) ثـم مجالـس محليـة، وعقـول مدبـرة، وأفـكار مبتكـرة علـى صعيـد الحركـة والفعـل والتنظيـم، وتوافـر لهـا دعـم إعلامـي ومالـي وسياسـي لـم نكـن لنتوقعـه حتـى فـي زهـوة التفـاؤل. هـذا فضـلًا عـن الأحقيـة الأخلاقيـة والسياسـية التـي تمتعـت بهـا الثـورة، ولا سـيما فـي مراحلهـا الأولـى، قياسًـا علـى النظـام السياسـي الـذي انطلقـت لمواجهتـه. وقـد تبيـن أن كل هـذا لا يكفـي لنجـاح الثـورة، مـا يحـرض علـى التفكيـر فـي الأسـباب التـي يمكـن أن تجعـل احتمـال تفـكك مجتمـع مـا وانهيـار إطـاره السياسـي، قابـلًا للتحقـق أكثـر مـن احتمـال خروجـه مـن «أزمـة الحكـم» ونجاحـه فـي الخـلاص مـن قيوده.

مـن رأي فرنسـيس **فوكويامـا** أن ثـورات الربيـع العربـي أقـرب إلـى الثـورات الأوروبيـة فـي منتصـف القـرن التاسـع عشـر، مـا يسـمى «ربيـع الشـعوب»، منهـا إلـى الموجـة الثالثـة مـن الديمقراطيـة التـي شـملت

بعض دول أميركا اللاتينية بدءًا من سبعينيات القرن الماضي، وشملت بلدان ما كان يعرف بالمنظومة الاشتراكية منذ أواخر العقد التاسع منه. يشير **فوكوياما** إلى أن بلدان الموجة الثالثة كانت لها بعض الخبرة الديمقراطية في تجربتها الوطنية السابقة، قطعها استيلاء الجيش على السلطة في أميركا اللاتينية، والاحتلال الأجنبي في أوروبا الشرقية، الشيء الذي لا تعرفه بلدان الربيع العربي، وهو ما يجعلها من هذه الناحية أقرب إلى أوروبا القرن التاسع عشر.

هناك فروق يذكرها **فوكوياما** منها الثقافة الإسلامية، «هناك عامل ثقافي واضح عقّد بشدة، وما يزال يعقد، إمكان قيام الديمقراطية في الشرق الأوسط، هو الإسلام»[12]، من دون أن يعدّه عقبة ثابتة في وجه الديمقراطية، لأن النظم الثقافية الكبرى تقبل تأويلات متعددة، أي أنها مرنة وتستجيب للقوى المؤثرة في الواقع: «مع مرور الزمن، كل النظم الثقافية الكبرى والمعقدة يمكن، وقد جرى بالفعل، تأويلها بطرائق شتى»[13]. يدعم كلامه بقول: «على امتداد جيل ما بعد الاستقلال والتحرر من الاستعمار، كانت الوطنية العلمانية مصدر الهوية الأساس في الشرق الأوسط؛ لكنها فقدت مصداقيتها بحلول السبعينيات لفشلها في إنتاج نمو اقتصادي مشترك مستدام، ولفشلها السياسي في التعامل مع قضايا مثل الصراع العربي الإسرائيلي»[14].

غير أن الفارق المهم عن أوروبا هو أن القوى التي تدفع باتجاه الديمقراطية في بلداننا، على خلاف الحال في أوروبا في القرن التاسع عشر، هي قوى غير أساسية في عملية الإنتاج. من يطالبون بالديمقراطية هم غالبًا جمهور يجري طرده من عملية الإنتاج بالأحرى، ويجري تهميشه وإفقاره. الطبيعة الاستبدادية للأنظمة القائمة في الوطن العربي، ارتبطت في وعي هذا الجمهور بالإفقار والتهميش، وباتت المطالبة بالديمقراطية التي تتضمن إسقاط هذه الأنظمة، مرتبطة لديهم بالعدالة الاجتماعية. الحراك الشعبي هو ضغط على البنية السياسية للنظام من خارج عملية الإنتاج إلى حد كبير. والأسوأ من ذلك أن تجدد العمليات الاقتصادية في هذه البلدان لا يدفع باتجاه توسيع الحريات والقاعدة السياسية للنظام، ما يجعل إنجاز المهمة الديمقراطية أكثر صعوبة، إذ على العمل السياسي والمدني الإرادي المنظّم أن يقوم وحده بالمهمة. هذا الواقع يعطي للعناصر السياسية، حتى الطارئ منها، مفعولًا زائدًا في تقرير مصير حركة احتجاج تطالب بالديمقراطية.

خاتمة

بعض التفسيرات المتداولة عن التعثر والتبدل في الثورة السورية اهتمت بمستوى يتعلق بالثورة نفسها، المستوى الإرادي أو الذاتي، وبعضها الآخر اهتم بمستوى يتعلق بالمجتمع والمحيط العالمي الأوسع، المستوى الموضوعي. من جهتنا ركزنا على التفكك في مكونات الثورة على نحو أهدر طاقتها، وحرمها من تحويل هذه الطاقة إلى نتائج سياسية. وأشرنا إلى صعوبة المهمة الديمقراطية في مجتمعاتنا نظرًا للهامشية الاقتصادية للمطالبين بها.

(12) فوكوياما، ص557. الحقيقة أن فوكوياما ليس ممن يقولون «بالحتمية الثقافية»، أي أن ثقافة مجتمع ما تفرض عليه طابعًا سياسيًا معينًا، كأن تكون المجتمعات المسلمة لا تتقبل الديمقراطية بسبب ثقافتها الإسلامية. في الهامش 4 ما يفيد هذه النقطة.

(13) المرجع نفسه، ص558.

(14) المرجع نفسه، ص559.

وجدنا من المفيد أيضًا تحديد المعنى المقصود عند الكلام عن فشل أو تعثر الثورة، هل نقصد الفشل في إسقاط النظام، الفشل الذي يتجلى في بقاء نظام الأسد إلى اليوم؟ أم نقصد الفشل في الحفاظ على الروح الديمقراطية التي انطلقت بها الثورة، الفشل الذي تجلى في سيطرة تنظيمات إسلامية ليست الديمقراطية ضمن المفردات الأساسية لبعضها، في حين أن بعضها الآخر يناصب هذا المفهوم العداء ويعدّه كفرًا، بكل بساطة؟

مهما كان المعنى المقصود، سنجد أنه، في المدى الزمني المباشر، ينطبق على ما انتهت إليه الحال في سورية. هذان فشلان متلازمان في التجربة السورية. ساهم النظام في تغذية النزوع الإسلامي في الثورة وصولًا إلى سيطرة أكثر التنظيمات الإسلامية رفضًا للديمقراطية، والسيطرة الإسلامية ساهمت بدورها في تعزيز بقاء النظام، بحسب الآلية التي سبق ذكرها. مع ذلك فإن التجربة المريرة التي عاشها المجتمع السوري خلال العقد المنصرم، سوف تؤلّف قاعدة ومنبعًا للمزيد من التبصر والتفكير في طرائق التحرر الممكنة. أي أن ما يبدو فشلًا اليوم، ينطوي على قدر من مقدمات النجاح غدًا.

المراجع:

1. فوكوياما، فرنسيس. الإسلام والحداثة والربيع العربي، رضوان زيادة (محاوِر)، حازم نهار (مترجم)، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2015).
2. غليون، برهان. عطب الذات، وقائع ثورة لم تكتمل، سورية 2011– 2012، ط1 (د. م: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019).
3. فوكوياما، فرنسيس. النظام السياسي والانحطاط السياسي: من الثورة الصناعية إلى عولمة الديمقراطية، ط1، (الدوحة: طباعة منتدى العلاقات العربية والدولية، 2016).
4. كيلو، ميشيل. الثورة السورية وبيئتها الدولية، ط1 (د. م: مؤسسة دار الجديد، 2023).
5. المسالمة، سميرة. الانهيار السوري: الصراع على السلطة والدولة والهوية، ط1 (الجزائر: منشورات الضفاف، منشورات الاختلاف، 2022).
6. اليوسف، عبد الباقي صالح. الانفجار السوري: الهوية، الانتماء، الكرد، الدولة الوطنية، والتسوية التاريخية، ط1 (د. م: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2017).

المشاركون في هذا العدد

الزهراء سهيل الطشم
أمل حويجة
أمل فارس
بينت شيلر
جبر الشوفي
جمال الشوفي
حازم نهار
راتب شعبو
رياض زهر الدين

ريمون المعلولي
سامر إسماعيل
سائد شاهين
سعيد بوعيطة
سلوى زكزك
سميح شقير
شوكت غرز الدين
شيرين عبد العزيز
عبد الرحيم الحسناوي

عبد الرزاق دحنون
عبد الله أمين الحلاق
عمّار الأمير
محمد عمر كرداس
مضر رياض الدبس
مهران الشامي
نور الهدى مراد
هدى سليم المحيثاوي
ورد العيسى

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

السعر 15 دولارًا
2757-8909